

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني — بين علميّة المنهج وخصوصيّة النصّ

الدكتورة: دمبري خولة جهاد

مخبر البحث في الدراسات المقديّة ومقارنة الأديان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة - قسنطينة

ملخص:

يشتغل هذا البحث على مساءلة الدور النقدي المنهجي في قراءة النصوص الدينية، وغرضه العلمي من وراء هذه القراءات، ومباحثة أصول المناهج الفلسفية وغاياتها الأخلاقية، بتسليط الضوء على عدة مفاهيم تشمل عمليّات القراءة ومدى توافقها مع المناهج المتبعة في ذلك. وقد كان منهج التحليل النفسي مدار هذا البحث بمعرفة طريقة عمله، وعرض بعض النماذج الأدبية والفكرية الحداثية في بعدها الاجرائي للمنهج ومدى اتفاه وتوافقه مع خصوصية النص الديني والظاهرة الدينية. وقد ذيل البحث بوضع ضابطين يسيجان عمليّة القراءة المعاصرة للنصوص المحورية للدين؛ هما: محدد فلسفة المنهج (ما وراء المنهج)، ومحدد مقاصديّة المنهج (مابعد المنهج).

الكلمات المفتاحية: النص الديني، منهج، التحليل النفسي، نماذج.

مقدمة:

حاول الإنسان منذ بدايات الوعي تفسير وتأويل النصوص وخصوصا الدينية منها بصفاتها حاكما على أفعاله ووسيلة لفهم العلاقة بينه وبين الدين، من خلال اتباع عدة مناهج تختلف في بنائها وغايتها لتخدم شغفه في الكشف عن مكونات النص وظروفه وأسباب نظمته كيفما كان هذا النص أدبيا أو فلسفيا أو دينيا، بينما لم يكن البحث في اللغة وقواعدها وما وراء النص كافيا لبلوغ اليقين التاريخي والمعرفي منها؛ فعمد إلى إعمال هذه المناهج (مناهج فلسفية/ تاريخية/ نفسية/ اجتماعية/ أنثروبولوجية...)، بداية على النصوص الأدبية والفلسفية والتاريخية وقد كانت النتائج ثورة في عالم الفكر؛ مما شجع على سوق هذه المناهج لقراءة النصوص المقدسة في محاولة للاقترب من الله وبلوغ درجة أعمق من الإيمان والاتصال بالغيب، لكن النتائج قد اختلفت وأنتجت واقعا لازال يتخبط فيه الإنسان المعاصر من حيث مخرجات هذه المناهج.

وقد شكّلت نظرية التحليل النفسي **Psychanalyse** لسليغموند فرويد **S.FREUD** (ت 1939) ثورة منهجية وفكرية في اكتناه الإنسان وإدراك عمقه الشعوري والأشعوري بالغوص في ما وراء النفس الإنسانية، ومحاولة اكتشافها عن طريق صياغات نظرية ساهمت في تغيير وجهة التفكير الإنساني نحو ذاته وأفعاله ومنتجه الفكري، ووجدت لها الصدى الكبير حين ترافقت مع نظرية داروين في نظريته التطورية القائلة بحيوانية الإنسان وتطوره ضمن سلسلته، وكذا نظرية ماركس التي تجعل البقاء للمادة والسيادة لها وجوديا، وتأثر الإنسان روحيا وفقا للبنية التحتية للاقتصاد والحمية التاريخية... وغيرها من النظريات التي أنتجت مناهج لم تعد تنتظر للنصوص بحد ذاتها كمصدر للفكر بقدر ما اتجهت الرؤية نحو مؤلف النصوص وصاحب الفكرة، والنظر إلى ملابساته وسياقاته الكامنة والمكتومة؛ بتجاوز إبداعه كإنسان إلى بنيته النفسية الكامنة والبحث في غرائزه الحيوانية ومخاوفه ومكبواته.

فهل كانت هناك تطبيقات صريحة لهذا المنهج على الظاهرة الدينية الإسلامية؟ وهل تمّ تطبيق هذا المنهج على النص القرآني؟ من هم رواده في العالم العربي، وماهي الآثار المترتبة على ذلك؟

*في مفهوم النص الديني:

لا يمكن الحديث عن النص الديني اليوم ومحاميله بمنأى عن الحادثة/ ما بعد الحادثة وآلياتها القرائية وعدتها المنهجية الغربية؛ حيث حاصرت هذا النص لكونه مدار الحضارة الإسلامية وعلومها

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... ————— د- دميري خولة جهاد

العقلية والنقلية، ويختلف مفهوم النصّ بين الأصوليين والحداثيين حسب سياقاته البحثية، حيث يحدّه الإمام الشافعي (204هـ) بأنّه: "المستغنى فيه بالتّزويل عن التّأويل"¹ محددا النصّ بالوحي الصريح المتعلّق بالتّشريع² ومستبعدا التّأويل والتفسير منه، ووافقه في ذلك الامام الجويني (478هـ) فأورد أقوالا منها: "لفظ مفيد لا يتطرّق إليه تأويل"³، مفيدا بذلك معنى الوضوح والظهور والبيان ونافيا عن أن يدخل في مفهوم النصّ صفة التّأويل والبحث في ماورائية المعنى.

بينما يتّسع معناه عند المفكرين من الحداثيين ليشمل كلا من التّزويل والتّأويل، وتطوّر المعنى حتّى صار متعلّقا بالبحث في ماهية القرآن؛ وبالتالي بكل ممارسة لغوية وحضارية إسلامية وحيا كان (القرآن والسنة) أو نصوصا نتجت عن فهم هذا الوحي (التراث)، بحيث أسقطت المفاهيم الأدبية الغربية على مفهومه وتحول النصّ إلى منظومة من العلامات رموزا أو ألفاظا تشكل نسقا وتبلّغ رسالة معيّنة وهو ما يجعل من النصّ نصّا. أما ربطه بالدين فهي خاصية تحصر هذا الخطاب في مفهوم الشريعة؛ بمعنى أنّه خطاب وممارسة تمتّ بحسب الرأي الحداثي في إطار ظروف معيّنة حصرت هذا النصّ بملابسات زمانية تجعله موصوفا بالتاريخية وفقا للعقل العلمي اليوم، وبالتالي جعله مجردا عن القداسة التي تفصل النصّ الوحياني عن تأويلاته وتفسيراته وتجعلهما بمرتبة واحدة من حيث القيمة والتأثير على العقل الديني، بل ويتساوى بالنصوص الأدبية والتاريخية البشرية كونه نصا ألف بعقل وخط بشري. وهذا المصطلح؛ "النص الديني" مطلق يشمل الحيز الثقافي والديني المسيحي واليهودي مما يجعله مصطلحا فضفاضاً يقصي خصوصية النصّ الإسلامي وحيا وتراثا؛ ولكنه رغم هذا الإطلاق يأخذ معنى النصّ الإسلامي إذا ما طرح في الدراسات الحداثيّة العربية تحديدا⁴، بينما

1 _ الشافعي، محمد بن ادريس: الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، ط1، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت)، ص 14.

2 _ المرجع نفسه، ص 21.

3 _ الجويني، أبو المعالي: البرهان في أصول الفقه، تح: عبد العظيم الديب، ط1، (د.م، 1399هـ)، ج1، ص 329 و413.

4 _ انظر بالتفصيل: مرزوق العمري: إشكالية تاريخيّة النصّ الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، ط1، (منشورات ضفاف، بيروت، 1433هـ-2012م)، ص 43 وما بعدها.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... ————— د- دميري خولة جهاد
 يجعله عليّ حرب حقلاً شاسعاً لتجديد الفكر والواقع، واستكشافه يعيد ترتيب العلائق بين الإنسان ووجوده ومقولاته، بين العقل والمعنى والمؤلف والقارئ، فهما للنص واستكشافاً له وتكميلاً لسلطته¹.
 وقد تمّ اعتماد المفهوم الأخير في هذا البحث_ بحيث يشمل الحديث عن النص الديني الإسلامي وحياً وتراثاً؛ لأنّ الدراسات النفسية بما فيها منهج التحليل النفسي قد طالت مفهوم الدّين وسبب الحاجة إليه، فضلاً عن التركيز على تراثه النصي (المدونات في مختلف العلوم الإسلامية) واتخاذ شخصيّة النبي صلى الله عليه وسلّم مدخلاً نفسياً بشرياً ومعبراً لتطبيق المنهج على شخصه ومنتهجه النصي.

***في منهج التحليل النفسي:**

بعد عصر التنوير وتغيّر النظرة الغربية نحو الطبيعة والمجتمع؛ تركّز الاهتمام على الجانب النفسي للإنسان الذي اضطلع وأهمل طويلاً في التعاليم الكنسية، حيث "يجمع المؤرخون على أنّ أوّل من أولى موضوع النّفس اهتماماً خاصاً هو الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596_1650)"² رغم اعتباره أبا للعقلانيّة الحديثة، ثمّ بظهور فرويد تمّ تقييم المجتمع على مستوى جديد هو المستوى السيكولوجي، وتمّ اكتشاف الشّعور واللاشعور واللاوعي من خلال "تأسيس علم لاعقلاني"³ يخالف المنحى العقلاني في رؤية الإنسان بحيث اشتغل البحث في اللحظات التي يغيب فيها العقل ويحلّ فيها اللاعقل المرتكز على الإيمانيات والتصديقيات دون وعي أو تعقّل، وتمّ فتح المجال لفهم المعتقدات الدينية نقدياً في ضوء التحليل النفسي. فتغيّر موقع الربّ بالنسبة للإنسان وتحكم الواقع الشخصي والجماعي للفرد في رؤيته للربّ، وتمكين من نضج نفسياً في الاستغناء عن وصاية الإله، وتدخّل قضية الممارسة الجنسية وتحكيمها كمعيار مؤثر في تشكّل الميل الديني، وتحولّت الزهينة إلى نوع من المرض النفسي. ثمّ سلّط الضّوء على قضايا الحروب الصليبية ضدّ المسلمين وصراعات اليهود وإبادتهم وإقصاء النساء عن مواقع الدين والحكم، والحديث عن الاستعمار وغير ذلك من المسائل التي

1 _ عليّ حرب: نقد النصّ، ط4، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005)، ص 8.

2 _ عامود بدر الدّين: علم النّفس في القرن العشرين (دراسة)، دط، (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001)، ج1، ص42.

3 _ إريك فروم: أزمة التحليل النفسي، تر: طلال عتريسي، ط1، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ_1922م)، ص 12.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد
اعتبرت نتائج نفسية لاتباع الدين انتهت بكوارث على البشرية، وتم إصدار حكم يقضي بأنّ المسيحية قد أخفقت في بلوغ العظمة الأخلاقية، ومن ثمّ تمّ الترويج للبيبرالية والاشتراكية كبديلين للعقائد الماورائية التي كرّست الكبت وحجرت العقل، وأهملت الإنسان¹.

إذا ينظر علم النفس عموماً في أسلوب الإنسان تجاه نفسه للوصول إلى شعوره، ويبحث هذا العلم "في حقيقة القوى التي تفعل ذلك؛ أعني قوة المعرفة، وقوة الشعور، وحدود الفكر ومقدار الثقة بصحة التفكير، ووظائف العقل المختلفة التي بها ندرك ونتحكّم ونتخيّل"²، كما يبحث في مسائل مختلفة من مثل: الإدراك، قوة الحافظة، الذاكرة، الإرادة، الخيال، الشعور، ...³

ويشتغل المنهج النفسي على فهم الإنسان باطنياً، أي على الاشتغال بجانبه المهمل في البحوث التاريخية والبيولوجية بالتركيز بالإضافة إلى فهم الإنسان وجوداً ومادّة إلى فهمه كذات داخلية وتأثير دواخله على فعله كفرد فاعل ومؤثّر ومتأثّر في محيطه، ويعرّف التحليل النفسي/ النفساني **Psychanalyse** بأنّه "طريقة نفسية عيادية، (...) تكمن هذه الطريقة في الكشف، بوسائل شتى، تقوم على لعبة الدّاعي، عن وجود ذكريات ورغبات وخيالات، مندمجة في أنساق أفكار باطنية مركّبة، يسبب حضورها غير المكتنه اضطرابات نفسانية وحتى جسيمة، وهذه تتوقّف عن إنتاج هذه المؤثرات عندما تستدعي للوعي التام"⁴. ويشتغل موضوع علم النفس الفسيولوجي على "دراسة الأحوال النفسية من جهة علاقتها بالظواهر الفسيولوجية، وهو مبني على الاعتقاد (الصريح أو المضمّر) أنّ علم النفس فرع من علم الفسيولوجيا، وأن موضوعه دراسة وظائف الجملة العصبية"⁵. ومن أهمّ الأساليب المستعملة في هذا العلم؛ "الاستجواب المباشر، تفسير الأقوال العفوية التي يدعى المريض لإطلاق عنانها، تأويل الآليات غير الإرادية وتأويل الأحلام". ارتدت هذه الطريقة الأخيرة أهميّة خاصّة في

1 _ ريتشارد تارناس: آلام العقل الغربي، فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، تر: فاضل جتكر، ط1، (دار العبيكان، السعودية، 2010هـ-1431م)، صص 378-380.

2 _ أس رابوبرت: مبادئ الفلسفة، تر: أحمد أمين، د.ط، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014)، ص 29.

3 _ المرجع نفسه، ص 29.

4 _ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعر: خليل أحمد خليل، إش: أحمد عويدات، ط2، (منشورات عويدات، بيروت-لبنان، 2001)، م 1 (A-G)، ص 1067.

5 _ صليبيا: المعجم، ج2، ص 491.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

المنهج التحليلي النفسي، بوصفها فرضيّة متممة، تقول إن أحوال الوعي المتعلّقة بالوقائع الجنسيّة تلعب دوراً مؤثراً في هذه العقد¹، حتى إنّ المعاجم التي تؤصّل لعلم النّفس كمذهب فلسفي فتعتبره مذهباً "يردّ المسائل الفلسفية إلى مسائل نفسية، بحيث يصبح علم النفس أساس الفلسفة كلها"²، بحيث يصبح مدار المعرفة ومقومها الأساس مادام يدرس الذات العارفة ويبحث في النفس كأحد مصادر المعرفة.

ويشتغل هذا المنهج على الجانب اللاشعوري في الإنسان ودوره في بناء الجوانب الفكرية له؛ إذ هو "منهج يستمد آليّاته النّقديّة من نظرية التحليل النفسي التي أسّسها الطّبيب النّمساوي سيغموند فرويد، فسّر على ضوئها السلوك البشري برده إلى منطقة اللاوعي (اللاشعور)"³، حيث تتشكّل نظريّته من بناء نفسي ومهمّة التحليل النفسي⁴:

1_ الهو: أي الدّافع الفطري الغريزي الذي يسيطر عليه مبدأ اللذة.

2_ الأنا: هو الوعي والشّعور، ينسّق بين الدوافع الغريزية والواقع.

3_ الذات العليا: القانون الأعلى للمجتمع كناظم للسلوك وضابط للذات.

كانت غاية هذا المنهج استتطاق الإبداع في النصّ الأدبي؛ والنصّ الأدبي هو "التّعبير عن تجربة شعوريّة في صورة موحية (...). التّجربة الشعوريّة ناطقة بألفاظها عن أصالة العنصر النفسي في مرحلة التّأثّر الدّاعية إلى التّعبير، والصّورة الموحية ناطقة بألفاظها كذلك عن أصالة هذا العنصر في مرحلة التّأثير الذي يوحى به التّعبير"⁵، يبحث هذا المنهج في الأدب مجموعة من التساؤلات التي تكشف وتفسّر بواطن النصّ عن الكيفيّة التي خلق بها النصّ الأدبي ومساءلة العناصر الشعوريّة

1 _ لالاند: الموسوعة، ص 1067.

2 _ صليبيا: الموسوعة، ج2، ص 498.

3 _ يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، ط1، (جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007)، ص 22.

4 _ سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، تر: سامي وحمود علي، (د.م)، ص 65 وما بعدها / شاكير أحمد السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر-في دراسة قضايا العقيدة والتراث، ط1، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، السعودية، 1431هـ-2010م)، ص 115 / علي زيعور: أحاديث نفسانية اجتماعية ومبتدئات في التحليل النفسي والصحة العقلية، ط1، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986)، ص 73.

5 _ سيد قطب: النّقد الأدبي -أصوله ومناهجه، ص 207.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... ————— د- دميري خولة جهاد

للكشف عن العناصر غير الشعورية المتداخلة وتناسقها¹، من خلال مباحثة "نظام شعور الكاتب، وعن طرازه النفسي، وعن البواعث التي تدرج داخله أكثر، وعن دوافعه الواعية والشعورية وعن اختياراته العقلية، وطريقته في الإدراك والتعبير..."². بدأت هذه العملية مع فرويد في معالجة الأمراض التي يتبعها أذى ظاهر وعضوي كالخوف والهستيريا، ولكنها تطوّرت لتشمل كلّ من يفقد السعادة أو القلق والوحدة وغير ذلك، حتى صار التحليل النفسي هواية، والاستلقاء على كرسي الطبيب كالجلوس خلف شباك الكاهن للاعتراف لغاية الاصغاء واكتساب شعور الرضى والارتياح³.

* التحليل النفسي في قراءة الدين/النصّ الديني:

ألقت الثورة العلمية والانفتاح على النقد والكشف والتجريب العلمي ثقلاً على العقول الغربية في مساءلة الكون كمادة تحوي كل نظريات الفيزياء والرياضيات والأجوبة النهائية لمبدأ ومنتهى البشرية وتشكله المادي والمعنوي؛ وقد كانت لنظرية داروين البيولوجية -مثلاً- تأثير على مسار البحث الفلسفي والحركة السياسية والتحليل النفسي؛ إذ غدا هذا التفسير بمثابة بداية الشّرخ الذي نشأ بين الإنسان والدين وإدراكه لذاته وأصله وسببه وجوده، بمعادة التفسير المقدس لأصل خلقة الإنسان وانقطاعه عن الإله ما دام الإنسان ما هو إلا كائن تطوري لم يتحكّم في وجوده إله مفارق، وأنّ الطبيعة تخطب خطب عشواء، والحياة تكونت بخلية تطورت عبر ملايين السنين لتكوّن بقانون الانتخاب الطبيعي تنوعاً هائلاً للمخلوقات؛ من الخلية الواحدة إلى النبات ثم النبات الحي ثم اللاقاريات ثم الفقاريات والثدييات والقردة ثم الإنسان، رغم وجود حلقة مفقودة بين الإنسان والقردة إلى اليوم، وغيباب التفسير العلمي والمنطقي لهذا الانقطاع لكنّها ما تزال النظريّة الأكثر رواجاً في التفسير المادي لوجود الإنسان.

ووجدت هذه النظرية صداها حين تولى كبار الفلاسفة منحها البعد الإجرائي وفق المقاس النظري والفلسفي؛ كماركس الذي فسر الوجود تفسيراً مادياً وجعل الإنسان خاضعاً للحتمية التاريخية، مخالفاً بذلك هيغل. فالحياة بدأت بشيوعية أشبه بالحياة الحيوانية ثم الملكية الاقطاعية ثم الملكية الصناعية ثم الرأسمالية وأخيراً العودة إلى الشيوعية المادية، التي تجعل من المنفعة والملكية المشاعة غاية تطور

1 _ المرجع نفسه، ص 207.

2 _ إنريك اندرسون إمبرت: مناهج النقد الأدبي، تر: الطاهر أحمد مكي، د.ط، (مكتبة الآداب، القاهرة،

1412هـ_1991م)، ص 133.

3 _ إيريك فروم: أزمة التحليل النفسي، مرجع سابق، ص 8_9.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد
الإنسان من مرحلة لمرحلة، وما الدين إلا أفيون الشعوب وسببه الحتمية التاريخية التي انتهت منه حين أثبت عدم جدواه. وجعل ماركس من فلسفته منهج حياة في حين أنّها في خلفيتها وسياقها قد منحت تصوّراً متفلسفا لنظرية داروين العلمية.

ليستلم المحلل النفسي فرويد الجانب الفردي للإنسان؛ فقام بإنزال قداسة الدين وجعلها نابعة عن الكبت الجنسي؛ الذي أنشأ الضمير والذي بدوره وضع التابوهات على الغريزة الجنسية العظيمة التي من أجلها أنشأت الحياة والإنسان، وألغى حرمة علاقات المحارم لأنّها من صنع المجتمع، ووضع نظرية أوديب للولد وإلكترا للبنات، وهي لا تزال عمود الدّراسات النفسية في العالم الإسلامي.

تستند نظرية فرويد التحليلية في الدين إلى مجموعة نظريّاته المتعلّقة بمفاهيمه النفسيّة كالتأبؤ والطوطم والغريزة والأبوة واللاوعي واللاشعور...؛ هذا الأخير الذي لا يجد له تصريفا في الواقع، فينحصر في انفعالات وردود فعل وانتاجات أدبية وشعريّة وسلوكية تنترجم هذا الكبت؛ حيث يفسّر ظهور الدين في حياة الإنسان برّده إلى المكبوتات وخصوصا الجنسيّة منها، التي تتشكّل الوهم لتعويض العجز أمام الطبيعة الغريزية، فيعتبر عقدة أوديب والميل الغريزي إلى الأب الحامي والمسؤول إلى كونها السبب الرئيس في ظهور فكرة الإله، "فقد سلط بذلك الضوء على التّوّاة الأبويّة، المستترة، لكن الماثلة في جميع الوجوه الإلهيّة"¹، واعتبر طرد آدم من الجنة قد كان بمثابة أول خطر يفتقد فيه وجود الإله/الأب وبالتالي فهو في حالة بحث دائم عن الأمان، حيث تعود الإنسان على وجود مثل هذا الخطر والحامي في حياته "ويبقى هذا الدّور وفقا إلى الأب على امتداد الطفولة. بيد أنّ العلاقة بالأب مشوبة بازدواجية خاصّة. فالأب يشكّل بذاته خطرا، (...) يوحى بالمهابة والخوف بقدر ما يوحى بالحنين والاعجاب، وأمارات هذه الازدواجية تترك عميق بصمتها على الأديان كافّة"²، لأنّ الطّفل لا يستطيع التخلّي عن هذه الازدواجية، فيعود بمكبوتات الطفولة إلى البحث عن هذا الخوف والأمان والذي تمّت ترجمته في الإله والدين والتعاليم التي يردّ الإنسان إليها خوفه من الأقدار ويستمد منها قوّته ضدّ الطبيعة والفساد الإنساني، "على هذا النّحو تتكوّن ذخيرة من الأفكار، وليدة عن الحاجة إلى تطليب الضائقة الإنسانية، مبيّنة بالمادّة التي تقدّمها ذكريات الضائقة التي كان عليها الإنسان في

1 _ سيغمووند فرويد: مستقبل وهم، تر: جورج طرابيشي، ط4، (دار الطليعة، بيروت، 1998)، ص 28.

2 _ سيغمووند فرويد، مستقبل وهم، ص 32 / ايريك فروم: الدين والتحليل النفسي، تر: فؤاد كامل، د.ط. (مكتبة غريب، القاهرة، د.ت)، ص 15_16.

منهج التحليل النفسي في نقد النص الديني بين علمية المنهج... د- دميري خولة جهاد
طفولته الأولى كما في طفولة الجنس البشري. ويسير علينا أن ندرك أن الإنسان يشعر، بفضل هذه المكتسبات، بأنه محمي من جانبين: من جهة أولى من أخطار الطبيعة والقدر، ومن الجهة الثانية من الأضرار التي يتسبب فيها المجتمع الإنساني¹، فينتهي إلى أن الدين والتدين ما هو إلا مجرد مرض عصابي جماعي ووهم مضاد للثقافة والحضارة، وخوف من المجهول وتقبل العقاب الدائم باسم الضمير والوساوس والذي يعيد الإنسان في كل مرة إلى بدائيته وطفوليته، فردياً أو جماعياً.

وينتقد إيريك فروم **Erich Fromm** (1980م) في جانب ما توجه تطبيق التحليل النفسي على الدين واصفاً إيَّاه بالخطر والتهديد على الشعور الديني، وكذا على المعنى الذي تمنحه الأديان للإنسان في الاهتمام بروحه ومنحه القدرة على الحب والتفكير²، بينما يمنح المنهج بعداً علمياً في إمكانية كشف أسباب التدين وخلفياته اللاشعورية التي تجعل المذنب في تهديم مستمر بسبب شعوره بالذنب ارتكبه أو لم يرتكبه، فتصبح الطقوس إيقافاً أو ترميماً للهدم (كشعور المسيحي مثلاً شاعراً بالذنب ورغباً في الاغتسال مما لم يرتكب)، وإن أصاب هذا المنهج أحياناً لكنه لم يفلح دائماً في رد الطقوس الدينية إلى خلل عصابي أو تربوي، أو التفريق بين معقولية بعض الطقوس دينية أو غير ذلك كالتصفيق والتحايا...³.

ولم يكن سيجموند فرويد مجرد محلل نفسي مجرد يؤلف في النظريات النفسية بطابع علمي نظري ومنهجي؛ حيث حاول دراسة التوحيد بمنهجه النفسي من خلال كتابه "موسى والنوح" حيث قرأ اليهودية في شخصية موسى عليه السلام، ثم اعتبر الأديان التوحيدية الإبراهيمية وتطوراً لفكرة الإله الأب المتجسدة في علاقات الأنبياء العائلية (الابوية/الأمومة) ومع مجتمعاتهم والتي كانت تدور لتعود

1 _ سيجموند فرويد، مستقبل وهم، ص 26.

2 _ إيريك فروم، الدين والتحليل النفسي، مرجع سابق، ص 91.

3 _ المرجع نفسه، ص 98_99.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

لأصل الإبراهيمية¹، وإجراء مقارنة لحضور عقدة أوديب بينها. وإن كانت خلفيته عن الإسلام قاصرة عن تقديم تفصيل دقيق له².

وقد تمّ تداوله هذا المنهج/الأسلوب في قراءة الأدب والفلسفة والفكر والدين، من أجل الخروج من قراءة النصّ إلى قراءة مؤلّف النصّ وسبر أغوار حالاته النفسيّة ومؤثرات التنشئة الأسريّة والاجتماعية، وقد طبّق هذا المنهج في دراسة القرآن الكريم من خلال شخصيّة النبيّ ووضع تجربته الشعورية/النفسيّة مع الوحي والنبوة؛ قيد البحث ومساءلة حيثياتها البيئيّة والمعرفيّة بالمنهج النفسي في التحليل.

وكان البحث عن نماذج مباشرة لتطبيق هذا المنهج على النصّ القرآني في العالم العربي والإسلامي من الصعوبة بما كان لما لهذا المنهج من غموض عام عند تطبيقه من طرف غير المختصين في علم النفس، حيث تمّ إجراؤه على الأدب شعرا ونثرا، نصا ومؤلفا، وقد تمّ توجيه انتقادات كثيرة من طرف الأدباء ونقاد الأدب سيرد ذكر آرائهم وبعض انتقاداتهم لاحقا في هذا البحث. وربما قلّت النماذج التي تعترف بانتهاجها لهذا المنهج، مع تعدّد جوانب هذا التطبيق؛ بعضها قد اختص بدراسة الإسلام كحضارة ودين توحيدي ذو أصل إبراهيمي مثل فتحي بن سلامة³، أو اشتغل على دراسة شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم من خلال هذا المنهج كنصر حامد أبو زيد صراحة، أو كناية في الالتقاء مع أفكار بن سلامة وأبو زيد كالعفيف الأخضر⁴، أو من سلط الضوء على ارتباط هذا المنهج بالمناهج التأويلية والشعورية الدينيّة بحيث يعتمد التحليل النفسي على مناهج داعمة أو مساعدة كالتأويلية والفينومينولوجية واللسانيّة...⁵، ويظهر عند أمثال جورج طرابيشي، عبد الكريم سرّوش وحسن حنفي وغيرهم، لأنّها تشترك في المنحى الذي تسلكه، فهي مناهج استبطانية تشترك في

1 _ سيغ蒙德 فرويد: موسى والتوحيد، تر: جورج طرابيشي، ط4، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986).

2 _ انظر حوارا مع فتحي بن سلامة: لماذا يعارض الإسلام مقولات التحليل النفسي؟
<https://ar.qantara.de/content/hwr-m-fthy-bn-slm-stdh-lm-lmrd-lnfsy-bjm-brys-lmdh-yrd-lslm-mqwlt-lthlyl-lnfsy>

3 _ أستاذ تونسّي مختص في علم الأمراض النفسية بجامعة باريس.

4 _ مفكر تونسي وحقوقّي، توفي سنة 2013، بعد محاولة انتحار في نفس السنة.

5 _ انظر مقال/ معاذ قنبر، التأويل في التحليل النفسي،

http://www.maaber.org/issue_october18/depth_psychology1.htm#_ftnref1

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

قراءة التجربة الدينيّة تاريخيا من الداخل واستتطاق المؤلف ودواخله ولغته كفرد ومجتمع متجسّدا في مخيال عام يحفر في عمق العقل كما في اللاوعي؛ كمحمد أركون¹ وهشام جعيط وعبد المجيد الشّرفي، أو من حمل على عاتقه توظيفها صحيحا متّزنا لخدمة المسلم والدّفع به حضاريّا مثل أمين خولي وعليّ زيعور²، وغيرها من النماذج التي نذكر بعضها منها بعضا لا على سبيل الحصر مع سوق بعض أقوالهم وادعاءاتهم دون التفصيل، ونلفت الباحثين للاشتغال به، والتطرّق إلى قراءة هذا المنهج وآثاره عند كلّ مفكر من خلال جميع مؤلفاته.

فقد سار الباحث التونسي فتحي أبو سلامة على نهج فرويد ومواصلة الدراسة عن الإسلام بتطبيق منهج التحليل النفسي على الإسلام كحضارة مانحا لنفسه حضوة الفرويدية المعاصرة وخطوة الوصل بين كتاب "موسى والتوحيد" لفرويد من خلال كتابه "الإسلام والتحليل النفسي" وواصل أفكار فرويد مطبقا إيّاها على الظاهرة الدينية الإسلامية ومساءلة نفسيّة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم وعلاقته بالأديان التوحيدية الإبراهيمية³؛ يقول: "إنّ رسالة محمّد تقوم على فكرة العودة إلى إبراهيم"⁴، بينما خصص كتابه "ليلة القلق" لكشف المكان الذي انطلق منه القرآن والإسلام، منذ لحظة نزول الوحي ومتابعاتها ضمن الحالة النفسيّة لمحمد عليه الصلاة والسلام⁵. وكذلك نصر حامد أبو زيد الذي كرر فكرة الإبراهيمية حيث قال: "كان البحث عن دين إبراهيم... بحثا عن دين يحقق للعرب هويّتهم من جهة ويعيد تنظيم حياتهم على أسس جديدة من جهة أخرى. وكان الإسلام هو الدين الذي جاء يحقق هذه الأهداف"⁶.

1 _ انظر هذه الفكرة عند: محمد الطوالبة: المنظور التأويلي في أعمال محمد أركون، د.ط، (الآن ناشرون وموزعون، د.م)، ص 68_69.

2 _ انظر دراسة مفصّلة عن منهج التحليل النفسي عند علي زبور؛ السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 113 وما بعدها.

3 _ فتحي بن سلامة: الإسلام والتحليل النفسي، تر: رجاء بن سلامة، ط1، (دار الساقى، بيروت، 2008).

4 _ فتحي بن سلامة: ليلة القلق -محمد والبيان الإسلامي، تر: البشير بن سلامة، (منشورات الجمل، بولونيا، ألمانيا، 2005)، ص 186.

5 _ انظر: المرجع نفسه.

6 _ نصر حامد أبو زيد: مفهوم النصّ -دراسة في علوم القرآن، ط1، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2014)، ص 65.

منهج التحليل النفسي في نقد النص الديني بين علمية المنهج... - د- دميري خولة جهاد

وقد مثل العفيف الأخضر صورة معربة عن الاستشراق الغربي وتبني رؤاه ونقده للإسلام وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، في كتابه: "من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ"، صحيح أنه لم يدع تطبيق منهج التحليل النفسي تحديداً إلا أنه وظّف زاوية البحث النفسي ونتائجه، وقال صراحة بأنّ بحثه يقتضي توظيف علم النفس في قراءة القرآن والنبي: "معرفة شخصية محمد النفسية، على ضوء العلوم المعاصرة خاصة علوم النفس"¹، ولم يخرج كثيرا عما ذهب إليه فتحي أبو سلامة، في تأثرهما بالصورة السيئة عن الإسلام التي صاغها الغرب طيلة قرون؛ من أنه دين التطرف والعنف فحولا تلميع العقل العربي بتجريده عن الانتماء الديني واعتباره حالة مرضية وجب لتصريح بها لنيل الرضا الغربي وتسجيل الحضور والظهور في مرآة الحداثة المجهضة؛ فقاما برده إلى الأصول العقدية العصابية الأوديبية لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتسلب النصوص على العقل المسلم الذي فرض عليه الالتزام بتعاليمها مقابل الترغيب بالثواب والترهيب من العقاب بشريعة كانت نتاجا ذهانيا لاضطهاد النبي محمد في طفولته، والبحث عن محمد الحقيقي بمقاييس علوم النقد الديني؛ وراء محمد الافتراضي الذي رسمه التاريخ والسيرة والاجماع حوله، واعتباره طوطم في المخيال المسلم ولا يجوز المساس به²، وأنّ القرآن مجرد لاشعور محمد وضميره الأخلاقي القاسي المكبوت³، "بكل متشابهاته، والتباساته وتناقضاته الوجدانية وتقلبه من النقيض إلى النقيض، من التمييز إلى التخيير، من الضمير الأخلاقي الجائر في مكة، إلى الضمير الأخلاقي الغائب في المدينة. من نبي وشاعر في مكة إلى مشرع ومحارب في المدينة..."⁴. وأما النبوة وفق الطب النفسي فهي: "هذيان التأثير، أي هذيان وهلاوس صادرة عن دماغ بشري مستوجب للعلاج"⁵، وأنّ هذا الهذيان قد استشرى في المجتمع مما صار لازما

1 _ انظر: العفيف الأخضر: من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ، ط1، (منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2014)، ص 10.

2 _ المرجع نفسه، ص 8_9.

3 _ المرجع السابق، ص 14_15.

4 _ المرجع نفسه، ص 15.

5 _ المرجع نفسه، ص 11.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

اخضاع الذهنية الإسلامية للدراسة النفسية التي نسجت صورة أسطورية لشخصية محمد وبالتالي للدين¹.

أمّا عبد الكريم سروش فشابه إلى حد ما سابقه في كتابه "بسط التجربة النبوية" وإن حاول أن يختفي خلف الفلسفة النقدية في نقده حتى لا يصدم العقل المسلم بما وصل إليه، حيث قدّم دراسة لظاهرة الوحي وكيفية وطريقة تحصيل الوحي وعلاقته بالنبّي وملابسات تشكّل النصّ والمؤثرات الخارجيّة والزمكانية المساهمة في تحديد لغته ووجهته ونوعية خطابه ومستواه، فقد تدخّلت فكرة القبض والبسط ونظرية الفيض² الذاتي في صياغة مفهوم النبوة مفاهيم لم تختلف عما روجّ له المستشرقون؛ من إلتغاء النبوة سماوياً والاصطفاء الإلهي البحث للأنبيا. حيث ربط شخصية النبي بمدى معرفته وسياقه العلمي وقدرته الذاتية على الاستلهام وعمق تجربته الروحية؛ يقول: "طبقاً للرواية التقليديّة لم يكن النبيّ سوى وسيلة، حيث يؤدي إلى الناس ما يأتيه به جبريل، ولكنني أرى أنّ النبيّ كان له دور محوريّ في خلق القرآن"³، واستدل بذلك على آيات القرآن الكريم التي قرأها بمنهج نفسي أنثروبولوجي ولساني يربط المصطلح القرآني بما يقابله من واقع اجتماعي مرتبط باللغة العربيّة وعادات المنطقة، حيث لم تخرج الصّورة الذهنية والأمثلة التّصويرية عن المخيال العربي؛ كمثّل: حور العين، الخيام، الإبل والحمار، الحرّ ولفح الصّحراء، جهنّم، الأشهر العربية، والفواكه المحصورة بالعنب والرمان والتين والزيتون، ورحلات الشتاء والصّيف...⁴. وارتباط أسباب النزول بأشخاص وأحداث محدّدين كأبي لهب وزوجنه، وواد البنات وحادثه الإفك مع عائشة...⁵، واعتبر أنّ هذا يلغي عالمية القرآن لأنّه لا يخاطب واقع المجتمعات الأخرى ووليد ظروفهم النفسي والاجتماعية، وقد كان يمكن للقرآن أن يكون ذا صياغة مختلفة لو اختلف النبيّ وبيئته، كذلك ارتباط نزول الوحي بحياة محدّد صلى الله عليه وسلّم، إذ لو

1 _ المرجع نفسه، 12_13.

2 _ Emanation "هو القول أنّ العالم يفيض النور عن الشّمس، او الحرارة عن النّار فيضاً متدرّجاً. والفيض مرادف للصّدور". صليبا، المعجم، ج2، مرجع سابق، ص 173.

3 _ حوار مع عبد الكريم سروش: كلام الله .. كلام محدّد صلى الله عليه وسلّم، تر: حسن مطر الهاشمي، (مجلة نصوص معاصرة، فصليّة تعنى بالفكر الديني المعاصر، تصدر بلبنان)، ر ت: حيدر حبّ الله، ع: 15_16، ص 4، صيف وخريف 2008، ص 12.

4 _ عبد الكريم سروش، بسط التجربة النبوية، (د.م)، ص 58_59. (نسخة إلكترونيّة).

5 _ انظر: المرجع نفسه، ص 60، 127.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد
عاش أكثر ولكن حجم القرآن أكبر، ولو زادت معارف عصره لكان أكثر إطلاعاً وعلميّة، وقد قال: "إنّ الوحي تابع للنبيّ لا أنّ النبيّ تابع للوحي"¹، والقول بالبشريّة هي دعوة لتمكين النبي من القراءات البشرية. ولم يختلف كلام نصر حامد أبو زيد عمّا سبق حيث اعتبر النصّ القرآني وسيلة محمد في تفريغ لاشعوره وكسب الاهتمام حوله والقيمة لوجوده، وتولّد من يتمه وتنقله بين كفالات متعددة وحرمان من الوالدين، وترجه نصاً قرآنياً². وغيرها من الأفكار المنكرة عند مفكري ورواد الحداثة، وكان غرضهم في النهاية حسبهم تحرير العقل المسلم من العجائزيّة في الايمان، و"تغيير الذهنيّة الإسلاميّة الخرافيّة السائدة، لدفعه المزيد من التعلّل، بل والعقلانية الدينية"³، أمام علميّة المنهج.

*محاولة نقديّة:

1_ علميّة المنهج:

وقع العالم الغربي في تضخيم منتج فرويد بحيث كان من قبيل الدهشة في تمكن فرويد في شد الانتباه الى ذات الانسان من ناحية لاشعوره كتبرير للأفعال الواعية او محاولة فهمها لكن ما فعله مجرد كشف لما يدركه الانسان أصلاً وواقعياً عن نفسه وما يستنتجه من أحلامه وذكرياته ومشاعره في مواقف معينة ودوافع بعينها، لكن لا يمكن اعتباره منهجاً قد حاز العلمية الدقيقة وإنما يظل مجرد نظرية لم ينفذ فرويد بها نفسه أو يحسن به علاقاته⁴ (كخلافه مع كارل غوستاف يونغ⁵)، حتّى إنّه ينعقد الدّين وبعده الغيبي بينما يردّ اكتشافه لمنهج التحليل النفسي إشراقاً وإلهاماً غامضاً نتج عبر تأمل لوحة ما⁶.

1 _ المرجع نفسه، ص 127.

2 _ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، مرجع سابق، ص 67_68.

3 _ العفيف الأخضر، من محمد الايمان الى محمد التاريخ، مرجع سابق، ص 10.

4 _ انظر دراسة اختصّت بنقد فرويد ومنهجه، الذي كان نتاج انتمائه اليهودي والذي كان الدافع الخفي لتأسيسه لنظرية التحليل النفسي، ل: دافيد باكان، فرويد والتراث الصوفي اليهودي، تر: طلال لعيسي، ط1، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ/1988م)، ص 21 وما بعدها.

5 _ ك. غ. يونغ، علم النفس التحليلي، تر: نهاد خياطة، ط2، (دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1997)، ص 129 وما بعدها.

6 _ دافيد باكان، فرويد والتراث الصوفي اليهودي، مرجع سابق، ص 27.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

هذه الدهشة مكنت لهذا المنهج الوضعي مجالا واسعا للتطبيق حتى وإن كان منهجا متّصفا بالتسرّع وعدم الوضوح؛ حيث أنّ هناك قسمان لمنهج التحليل النفسي الأول كونه منهج فهم لا تفسير، والثاني أنه منهج علاجي يعتمد على الحوار السريري المباشر مع المريض، فما يهمنا هو الأول الذي كان يستعين بالتأويل على فهم التاريخ والنص والشخصيات التاريخية المؤثرة بمساره، هذه الاحتمالية في التأويل والكشف هي التي أكسبت التحليل النفسي قوته، وكذا من ثبات نظرياته بحيث لا يمكن تخطئها أو الحكم صحتها؛ وبالتالي اعتباره منهجا لاعلميا وبكونه كذلك فقد استهوى غير المتخصصين في علم النفس أو من عامّة المتقنين¹.

أمّا في العالم العربي فقد انقسمت الآراء بين مناصر له ومعارض وجد هذا المنهج في مجال الادب مناصرين له كتبوا فيه وآلفوا لأجله على غرار فتحي بن سلامة؛ مثل العقاد وجورج طرابيشي، ورافضين لتدخل النقد النفسي (أمثال محمّد مندور، محي الدين صبحي، عبد الملك مرتاض) في الأدب لكونه مجالا لا يتناسب مع خصوصية النصوص المؤسسة بقوانين خاصة بالأدب، وتنزل بالأديب منزل المريض النفسي وتقتل الادب، بل إنّ هذا المنهج ينطلق من افتراضات مسبقة وتوهّمات وعقد تفرض على النص والمؤلف بالقوة²، وهو ما يتنافى مع علميّة المناهج في كونها "طريق نصل من خلالها، وبها، إلى نتيجة معيّنة، حتى وإن كانت هذه الطريق لم تحدّد من قبل تحديدا إراديا ومترويا"³، كما بضبط صلاح⁴ فضل الإجرائية المنهجية بضرورة اتفاقها مع المادة المدروسة؛ بأنّه: "اجتماع النظريّة التي توطّر بشمولية للمنظومة المعرفية المراد دراستها ثمّ المنهج أو الطّريق الذي يتوخّى في العملية البحثية أو النّقدية، انتهاء إلى التّقنية المتداولة التي يستعملها أصحاب المنهج في

1 _ مقال: مليكة ستيّتي، نظرة في التحليل النفسي كنظرية وكطريقة علاجية، مجلة الباحث، العدد 4، رقم 8، بوزريعة، الجزائر، تاريخ النشر: 2013-06-30، ص 35_55.

2 _ انظر: وغيليسي: مناهج النقد الادبي، مرجع سابق، صص 25_27.

3 _ لالاند، الموسوعة، مرجع سابق، ص 803.

4 _ الدكتور محمد صلاح فضل (1938م)، أديب وناقد أدبي مصري، له: مناهج النقد المعاصر...

<http://scc.gov.eg/profile/%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD-%D9%81%D8%B6%D9%84/>

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

ممارستهم العملية¹، فهو هنا يضبط المعنى بالخطوات الخاصّة التي تناسب المنظومة المعرفية المراد راسستها، وتوحيّ خصوصيتها نظرية ومنهجاً ونقداً وتقنية، ما يؤكّد أنّ العلمية بالمنهج ليس تجرّديته التي تمنحه الحقّ في أن يطبّق على أيّ مادة مدروسة حسب اختلافاتها المعنوية خصوصاً.

أمّا في الجانب الأخلاقي فيقول الباحث عبد الرزاق بلعقروز² عن المناهج التي لا تلتزم بالطابع العلمي والقيمي للموضوع المدروس أو الغاية الإجرائيّة من تطبيقها وتقصي القيم العلمية والمعرفية والأخلاقية؛ بأنّها مناهج تدميريّة "لا تتناول القيم من حيث التحليل والدّراسة فقط، وإنّما تدرس القيمة الخلقية وتنتهي في الآن نفسه إلى تدميرها وتصويرها بوصفها نواتج ثقافيّة أو نتاج لظروف اجتماعية أو جزء من طبقة اجتماعية محددة. فهي لا تعترف بالطابع المقدّس للأخلاق"³ وذكر من بين هذه المناهج منهج التحليل النفسي الفرويدي.

فالمناهج؛ جملة من الأدوات التي تمكّن من قراءة الوقائع والمفاهيم وصور الإبداع كما هو، أي أنّه النافذة التي يُنظر بها إلى المسائل وبيانها بوضوح وتحديد غايتها بجلاء، دون التّدخل الاستباقي في نتائج البحث وفرض النتائج كما يفعل منهج التحليل النفسي، "في سبر ما هو جنسي"⁴؛ بحيث "يستخدمون المناهج النفسية لكي يغوصوا في العمل، وفي العمل لكي يغوصوا في شخصية المؤلف المختل"⁵، ولا يسلم أيّ مؤلّف فما بالنا بشخصيّة النبي صلى الله عليه وسلّم والتي أخضت للمنهج دون مراعاة لخصوصيّته القدسيّة الدينية ودون دراسة ظاهرة الوحي في إطارها الغيبي والاعتقادي/الإيماني، ومساواته بالأدباء والشعراء، الذين دافع عنهم المتخصصون بالأدب ورفضوا هذه

1_ صلاح فضل، مناهج النّقد المعاصر، مناهج النّقد المعاصر - مصطلحاته، ط1، ميريث للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002م، ص 13.

2 _ دكتوراه في الفلسفة، أستاذ فلسفة القيم، عضو مؤسس الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2/ الجزائر، الفلسفة الإسلامية بجامعة سطيف/الجزائر.

3 _ مقال: عبد الرزاق بلعقروز: القيم الأخلاقية والعلوم الاجتماعية: نحو إبستمولوجية القيم الحاكمة، إسلامية المعرفة، مجلّة الفكر الإسلامي المعاصر (مجلّة علميّة عالميّة فصليّة محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، رئيس التحرير: فتحي حسن ملكاوي، ص 20، العدد 80، ربيع 1436هـ-2015م، ص 86.

4 _ إنريك اندرسون إمبرت، مناهج النّقد الأدبي، تر: الطاهر أحمد مكّي، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، 1412هـ-1991م، ص 138.

5 _ المرجع نفسه، ص 137.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

الاسقاطات النفسية بحقهم ومنع رواد منهج التحليل النفسي من "أن يغتصبوا نزاهة الاعمال الفنية، وما هو أسوأ: المعنى"¹، ويلغوا بذلك الفروق الفردية بين الادباء وإقصاء ميزة اختلاف مدارسهم. وتمّ توجيه النقد لاستعمال هذا المنهج في النصّ الأدبي من عدّة نقاط منها؛ أنّه مختلف عن طبيعة النصّ وتطبيقه لن يظهر النصّ بجماليّته بقدر ما يعتبر نصّاً مريضاً جنسياً شاذ الصّاحب، يتمّ بتره عن سياقه وكنيّته ليؤول بأجزاء مع اسقاطات مسبقة له، ويساوي بين الرديء والجيد لفقدانه حسّ الدّوق المالي، كما بصّر على تجاوز النصّ والاشتغال على مؤلفه وتصرفاته الكامنة لا ما أبدعه من جمال²، واختزاله في مجرّد عقد.

ولعلّ أهمّ ما يعاب على علميّة منهج التحليل النفسي أنّه يحاول أن يكسب آليته معيارية ودقّة المناهج العلميّة دون مراعاة طبيعة الإنسان النسبية والتي تميّز العلوم النفسيّة والاجتماعيّة، وتحمل القضايا الإنسانية المدروسة مبدأ الحتميّة حيث فـ "تسلم بالحتمية حتى تصبح مناهج علمية من الوجهة العملية، وان كانت الحتمية لا تظهر في السلوك الإنساني إلا إذا غلبت عليه الآلية (...)"، أما الانسان حر الإرادة المتحرر من الشروط الفسيولوجية والاجتماعية فانه لا ينطوي تحت مقولة الحتمية"³، وبالتالي فلا يمكن ان ينضبط سلوكه وفقاً للنظريّات النفسيّة أو يستقر على تمّ التنبؤ به أو استنتاجه، كما لا يمكن إغفال الحضور الدّاتي للمحلل النفسي الذي يملك القدرة على فرض رؤيته الخاصة في محاولة الفهم، وتأويل النصوص حسب قنانيته التي قد لا تخلو من العقد التي قد يسقطها دون وعي منه وبالتالي فقد يقع التشكيك بمدى صحّة ما يصل إليه، ومتى كان التداخل والإسقاط وأين يغيب حضوره ومعناه الدّاتي.

المناهج التي تتعامل مع الإنسانية الباطنيّة كعلم النفس إنّما تكتسب علميّة من النسبية التي تطبق طرائقها وإجراءاتها، بحيث تبقى باب البحث مشرعا دون أحكام نهائيّة ومتعسّفة، بينما يفقد صورته العلميّة ومقامه المنهجيّ البحث كلّما خرج عن طبيعته ليحاكي مناهج العلوم الطبيعيّة والرياضيّة.

1 _ المرجع نفسه، ص 138.

2 _ وغيلسي، مناهج النقد الأدبي، مرجع سابق، ص 29_30.

3 _ محمد محمد قاسم: المدخل الى مناهج البحث العلمي، ط1، (دار النهضة العربي، بيروت، 1999)، ص 62.

2_ خصوصيّة النصّ الديني¹:

لا يخفى على أي باحث في الفكر الديني مدى خصوصيّة ومقام القرآن والسنة في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية للمسلمين وخواصهم ومحوريّتها في المنظومة المعرفية الإسلامية، ما يجعل النقاد لهذه المنظومة في تماس مباشر مع قدسيّة هذه النصوص المسيجة بسباج عقديّ وطيد يقتضي عدّة منهجيّة ولغويّة لسبر أغوار هذا الحقل المقدّس وغايته (=كلام الله عزّ وجل ورسوله عليه الصّلاة والسّلام والرّسالة السماويّة والالتزام بما جاء فيها)، ولكن العجز الإبداعي قد جعلهم في حالة من التيه بين الاعتماد على آليات التراث الإسلامي والتي لا تبلغهم مرادهم، أو بالاستناد على جهود غيرهم من الغرب في تقديم للنص وثورتهم على المقدّس؛ إذ تعاني الساحة الدائرية العربية هزالا معرفيا ومنهجيا إذا ما تعلّق الأمر بقراءة النص الديني ما يجعلهم عالة على الاستشراق الحديث والمعاصر وما تلاه من الحداثة الغربية وما بعدها؛ متطفلين على مناهجهم في قراءتهم لنصوص العهدين القديم والجديد، أو نصوص التراث اليوناني، والأدب الكلاسيكي والمعاصر، ووضعهم في مساق واحد، حيث ألحقوا القرآن الكريم والسنة النبويّة بهذه النصوص، وقد فصل أحد الباحثين في بيان اقتباس الحداثيين العرب لمعايير المستشرقين الانثروبولوجية والفولكلورية كمرجع في نقد القرآن² حيث أجروا مقارنة للنصّ القرآني بالنص الأدبي من ناحية كونه نصا ابداعيا فقال في معرض حديثه: "أفجمع نقاد القرآن من العرب المعاصرين على مدامجة النصّ القرآني للنصّ الإبداعي على تنوعه الادبي والفكري والتاريخي والفني دون أدنى تمييز بينه وبينها تحت طائلة أنسنة النص وعقلنته وغير ذلك مما يجعل القرآن مسيجا بحدود الفعل الإبداعي في فك الفكر الفلسفي والتحليل النفسي على وجه الخصوص"³، ويتخلل تطبيقات الحداثيين للعرب لهذا المنهج هوس نفسي يربى بهم عن انحطاط العالم الإسلامي باستحضار الوعي الغربي الذي حارب الدّين وخرج من حدوده في التعامل مع النصّ الديني واستصحاب الخلفيّة الوضعيّة والإلحادية في رفض كلّ ما هو ديني ولاهوتي أو غبي وترسيم الانسان سيّدا ومسيرا، وذلك بإزالة القداسة عن الدين اقتداء وتقليدا بنماذج قراءات الغرب لكتبهم المقدّسة، ومحاولة تطبيق هذا المنهج على النص

1 _ انظر بتفصيل: مرزوق العمري: إشكاليّة تاريخيّة النصّ الديني، مرجع سابق، ص 61 وما بعدها.

2 _ عزوز بن عمر الشوالي: التناول الدائري للخطاب الشرعي الإسلامي وإشكالات المنهج -البدايل المستعارة والتطبيقات المأزومة، ط1، (منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 2017)، ص 195 وما بعدها.

3 _ المرجع نفسه، ص 203.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

القرآني لن تكون علميّة بريئة وعلميّة؛ إذ لم يخرج المنهج النفسي عن آليّة الحادثة في زحزحة القدسيّة عن النصّ ووصفه بالتأريخيّة، وصرف المفاهيم عن معانيها الظاهرة إلى ما لا يحتلّ شرعا وعقلا. وقد كانت هناك محاولات جادة في محاولة أسلمة قراءة هذا المنهج ونجدها عند كلّ من مالك بن نبيّ في كتابه الظاهرة القرآنيّة في قراءة النّفس ومراحل قيام وأقول الحضارات وفقا لمنهج التحليل النفسي، وكذا محاولة الباحث حسن المودن¹ في بحثه: "قراءة نفسانية في قصة النبي يوسف: عقدة الأخوة أولى من عقدة أوديب"²، الذي نقد فيه نظريّة اوديب الابوية/الإبنيّة، بعقدة الأخوة مستتبطا إياها من القرآن الكريم ومن سورة يوسف تحديدا، في بيان غياب عقدة الأب والأم، و"من أجل تجديد التحليل النفسي الانثروبولوجي: من عقدة أوديب إلى عقدة قابيل"³، وشذّ الانتباه لأنّ تفسير العقد سكولوجيا قد يتجاوز الحدود التي سطرها فرويد وتلاميذه من بعده، وتقديم صورة قرآنيّة لإمكانيّة استخراج قواعد منهج نفسي من النصّ نفسه ليكون مصدرا مؤصّلا لنظريّات علم النفس وحاكما عليها لا خاضعا لها، في نقلة نوعيّة من تطبيق التحليل النفسي على النصّ الديني إلى تطبيق النصّ الديني على التحليل النفسي _ على حدّ قوله _.

بالإضافة إلى دراسات نقدية لهذا المنهج في الساحة الاسلاميّة، تؤصّل للنفس وعلم النفس والوعي واللاوعي قواعد جديدة تنتقد الخلفية⁴ الوضعية للمنهج النفسي الغربي والأفكار الراديكالية واليسارية التي صاحبت تطوره، وتخلق لها نموذجا إسلاميا في قراءة الظواهر الدينية والبشرية، يراعي خصوصية التعامل مع النصّ الديني مصدرا كان أو تراثا، فـ "مما لا شكّ فيه أنّ فكرة التحليل النفسي كما هي متداولة في الغرب هي علمانيّة. وإذا ما دخلت العالم العربي تتطلّب عملا خاصا كي تأخذ مكانها في الثقافة العربيّة. إنّ أيّ شخص يريد أن يعمل في هذا المجال سيصطدم بحاجز ثقافي وقد

1 _ باحث وأستاذ جامعي مغربي دكتوراه الدولة في الأدب، صدر له: لاوعي النصّ في روايات الطيب صالح، قراءة من منظور التحليل النفسي...

2 _ حسن المودن: تبين للدراسات الفلسفيّة والنظريّات النقدية، المجلد 3، ع 10، 30 سبتمبر/أيلول 2014، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، تاريخ النّشر: 2014/09/30، صص 37_47.

3 _ حسن المودن: مجلّة أبوليوس، المجلد 7، ع 01، جانفي 2020، المركز الجهوي لمهن التّربية والتّكوين، مراكز، المغرب، تاريخ النّشر: 2020/03/30، صص 23_36.

4 _ انظر: إيريك فروم، أزمة التحليل النفسي، مرجع سابق، ص 17 وما بعده.

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد
يضطر إلى اللصق والترقيع... فهذه العملية تتطلّب جهداً فكريّاً جديّاً يختلف تماماً عن طريقة الاستهلاك المستوردة في الحداثة¹، فقد برزت مثل هذه الجهود مع كلّ من سيّد قطب في كتابه: "النقد الأدبي - أصوله ومناهجه"، ومحمد عزّ الدين توفيق في كتابه: "التأصيل الإسلامي للدراسات النفسيّة - البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي"، أمّا من خارج السّاحة الاسلاميّة فقد حاول إريك فروم مناقشة أزمة التحليل النفسي للدين وبيان إيجابيات ومساوئ هذا التحليل، في كتابيه: "أزمة التحليل النفسي" و"الدين والتحليل النفسي"؛ من أنّ "مشكلة الدّين ليست هي مشكلة الإله، وإنّما مشكلة الإنسان، وما الصّيب الدّينية والرموز الدّينية سوى محاولات للتمييز عن ضروب معيّنة من الخبرة الإنسانية"²، وغيرها من المحاولات التي تبحث التوازن بين النفس وفهم النفس وبين خصوصية النصّ المهيمين تاريخياً وإيمانياً.

في الختام:

يمكن بيان ضرورات أربع يجب أخذها بعين الاعتبار واستحضارها قبل مباحثة مثل هذا الموضوع:

أ/ لم يحظ منهج التحليل النفسي في الدراسات الحداثيّة للنصّ نفس الحيز الذي حظيت به المناهج التأويلية والأسنوية والتاريخية، إلا بشيء يسير وعلى استحياء لأنّه منهج لم يكن بنفس وضوح المناهج الأخرى كما يقتضي الاختصاصية في اعتماده وتطبيقه.

ب/ أنّ الدّراسات النفسيّة للطّاهرة الدّينية (القرآنية الإسلامية) ومحاولة تطبيق المنهج النفسي على نصّه ما هي إلّا نتاج المدرسة الاستشراقية وتبني لمقولاتها، سواء بتغيير الخطاب أو الاختباء خلف علمية المناهج المعتمدة في هذه القراءات لكن مع الانطلاق من نتائج الاستشراق والوصول إليها.

ج/ أنّ إخضاع النصوص الدّينية إلى نفس منهج وطريقة قراءة النصوص الأدبية والتاريخية هو من قبيل المغالطة الأولى التي تنتهي إلى نفس الاستنتاجات الخاصة بالنصوص الأدبية دون

1 _ محمد صفوان، عدنان حبّ الله: إشكاليّات المجتمع العربي - قراءة من منظور التحليل النفسي، ط1، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2008)، ص 131.

2 _ إريك فروم: الدّين والتحليل النفسي، مرجع سابق، ص 102.

منهج التحليل النفسي في نقد النص الديني بين علمية المنهج... د- دميري خولة جهاد
مراعاة للخصوصية الوحيانية والغيبية لها، مما يشكك بعلمية هذا التطبيق إذ يشترط مراعاة المادة المدروسة لما يوافق طبيعتها من المناهج.

د/ أن تطبيق المناهج بحاجة إلى حدود قيمية تضبط التعامل مع النصوص عموماً والدينية بدرجة أخص ويمكن حصرها في ضابطين: فلسفة المنهج ومقاصدية المنهج؛ أما فلسفة المنهج فتقتضي البحث في الفلسفة التي تأسس من خلالها هذا المنهج وملايسات مؤسسيه، فلا يطبق المنهج بمنأى عن خلفياته وفلسفته التي توصل لوسائله وآلياته ورؤيته للنص. أما مقاصدية المنهج فتتعلق بالنية العلمية والأخلاقية في الغرض من تطبيق المنهج واختياره للبحث والقراءة، دون استباق النتائج على الإشكاليات وحصرها وفق قالب المنهج دون تفعيل خاصية التقويم والبناء الذي يرتجى من المناهج. وهو ما يمكن قوله على منهج التحليل النفسي باعتبار فلسفة نشوئه ومقاصدية تطبيقه، رغم أن تطبيقاته لازالت تتقدم على استحياء مقارنة بالمناهج التأويلية والنقدية والأسنيات والانثروبولوجية... التي وجدت لها طريقاً في إخضاع النصوص لقوالب الحداثة الغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1_ أس. رابوبرت: مبادئ الفلسفة، تر: أحمد أمين، د.ط، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014).
- 2_ الجويني، أبو المعالي: البرهان في أصول الفقه، تح: عبد العظيم الديب، ط1، (د.م)، 1399هـ، ج1.
- 3_ الشافعي، محمد بن إدريس: الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، ط1، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت).
- 4_ العفيف الأخضر: من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ، ط1، (منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2014).
- 5_ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعر: خليل أحمد خليل، إش: أحمد عويدات، ط2، (منشورات عويدات، بيروت-لبنان، 2001)، م1 (A-G).
- 6_ إنريك اندرسون إمبرت: مناهج النقد الأدبي، تر: الطاهر أحمد مكّي، د.ط، (مكتبة الآداب، القاهرة، 1412هـ-1991م).

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... ————— د- دميري خولة جهاد

7_ إنريك اندرسون إمبرت، مناهج النقد الأدبي، تر: الطاهر أحمد مكي، (مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، 1412هـ_1991م)

8_ إيريك فروم: أزمة التحليل النفسي، تر: طلال عتريسي، ط1، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ_1922م).

9_ إيريك فروم: الدين والتحليل النفسي، تر: فؤاد كامل، د.ط، (مكتبة غريب، القاهرة، د.ت).

10_ دافيد باكان، فرويد والتراث الصوفي اليهودي، تر: طلال لعريسي، ط1، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ_1988م).

11_ ريتشارد تارناس: آلام العقل الغربي، فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، تر: فاضل جتكر، ط1، (دار العبيكان، السعودية، 2010هـ_1431م).

12_ سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، تر: سامي وحمود علي، (د.م).

13_ سيغموند فرويد: مستقبل وهم، تر: جورج طرابيشي، ط4، (دار الطليعة، بيروت، 1998).

14_ سيغموند فرويد: موسى والتوحيد، تر: جورج طرابيشي، ط4، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986).

15_ شاكير أحمد السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر - في دراسة قضايا العقيدة والتراث، ط1، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، السعودية، 1431هـ_2010م).

16_ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، مناهج النقد المعاصر - ومصطلحاته، ط1، (ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002م).

17_ عامود بدر الدين: علم النفس في القرن العشرين (دراسة)، د.ط، (منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001)، ج1.

18_ عبد الكريم سروش، بسط التجربة النبوية، (د.م).

19_ عزوز بن عمر الشوالي: التناول الحداثي للخطاب الشرعي الإسلامي وإشكالات المنهج - البدائل المستعارة والتطبيقات المأزومة، ط1، (منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 2017).

20_ علي حرب: نقد النص، ط4، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005).

منهج التحليل النفسي في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

21_ علي زيعور: أحاديث نفسانية اجتماعية ومبسّطات في التحليل النفسي والصحة العقلية، ط1، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986).

22_ فتحي بن سلامة: الإسلام والتحليل النفسي، تر: رجاء بن سلامة، ط1، (دار الساقية، بيروت، 2008).

23_ فتحي بن سلامة: ليلة القلق -محمد والبيان الإسلامي، تر: البشير بن سلامة، (منشورات الجمل، بولونيا، ألمانيا، 2005).

24_ ك.غ. يونغ، علم النفس التحليلي، تر: نهاد خيّاطة، ط2، (دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1997).

25_ محمد الطويلة: المنظور التأويلي في أعمال محمد أركون، د.ط، (الآن ناشرون وموزعون، د.م).

26_ محمد صفوان، عدنان حبّ الله: إشكاليات المجتمع العربي -قراءة من منظور التحليل النفسي، ط1، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2008).

27_ محمد محمد قاسم: المدخل الى مناهج البحث العلمي، ط1، (دار النهضة العربي، بيروت، 1999).

28_ مرزوق العمري: إشكالية تاريخيّة النصّ الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، ط1، (منشورات ضفاف، بيروت، 1433هـ-2012م).

29_ نصر حامد أبو زيد: مفهوم النصّ -دراسة في علوم القرآن، ط1، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2014).

30_ يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، ط1، (جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007).

الدوريات:

31_ مجلّة أبولويس، المجلّد 7، ع 01، جانفي 2020، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مراكز، المغرب.

32_ إسلامية المعرفة، مجلّة الفكر الإسلامي المعاصر (مجلّة علميّة عالميّة فصليّة محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، رئيس التحرير: فتحي حسن ملكاوي، س20، العدد 80، ربيع 1436هـ-2015م.

منهج التحليل النفسي، في نقد النصّ الديني بين علميّة المنهج... د- دميري خولة جهاد

33_تبيّن للدراسات الفلسفيّة والنظريّات النقديّة، المجلد 3، ع10، 30 سبتمبر/أيلول 2014،

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر

34_مجلة الباحث، العدد 4، رقم 8، بوزيعة، الجزائر.

35_مجلة نصوص معاصرة، فصلية تعنى بالفكر الديني المعاصر، تصدر ببلدان، رت:

حيدر حبّ الله، ع: 15_16، س 4، صيف وخريف 2008.

المواقع الالكترونية:

36_<https://ar.qantara.de>

37_<http://www.maaber.org>